خبز الصّغار

قصة يوسف أبو رية رسوم حلمي التوني



دار الفتى العربي
للنشر والتوزيع





خُبْزُ الصِّغَارِ





الْبِنْتُ الَّتِي جلَسَتْ
بِجِوَارِ الْفُرْنِ؛ شَيَّدَتْ
بَيْتَها بِحَجَرَيْنِ كَبِيرَيْنِ
وَخَشَبَةٍ عَرِيضَةٍ، أَنَامَت
الرَّحَى، وَقَالَتْ: «هِيَ الْفُرْنُ الَّذِي سَأَرْمِي فِيهِ
أَرْغِفَتِي».

جَلَبَت الْمَاءَ مِن الطُّلُمْبَةِ الْقَرِيبَةِ، عَجَنَتْ بِهِ الطِّينَ الَّذِي سَوَّتْ مِنْهُ أَرْغِفَةً؛ تَقَافَزَت بَيْنَ يَدَيْهَا عَلَى الصَّفِيحَةِ الصَّدِئَةِ. وَالْوَلَدُ أَعْطَاهَا وَرَقَتَيْنِ. قَالَ: «اشْتَرِي لَنَا غَدَاءً مِن السُّوقِ؛ حَتَّى أَعُودَ مِن الشُّغْلِ».







وَذَهَبَ إِلَى هُنَاكَ؛
تَحْتَ الشَّجَرَةِ الَّتِي تُغَطِّي
سَطْحَ الدَّارِ، وَتَنَامُ أَغْصَانُهَا عَلَى السُّورِ الْمُطِلِّ
عَلَى الشَّارِعِ الْكَبِيرِ.

أَمْسَكَ الْعَصَا، وَقَالَ لِلْأَوْلَادِ: «انْحَنُوا عَلَى شَجَرِ الْقُطْنِ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ أَعْثُرَ عَلَى لَطْعَةٍ تَغْفُلُهَا عُيُونُكُمْ».

وَقَالَ لِنَفْسِهِ: «هَكَذَا؛ كَانَ الْخُولِي يَقُولُ لِلْأَنْفَارِ، لَكِنَّ الْمُهَنْدِسَ الَّذِي جَاءَهُ رَاكِبًا فَرَسًا؛ ضَرَبَهُ فِي وَجْهِهِ؛ لَمَّا عَثَرَ الدُّودِ يَأْكُلُ الْوَرَقَةَ».





جَـاءَت الْبِنْتُ إِلَيْهِمْ، وَقَـالَتْ:
«مَـا رَأْيُكُمْ لَـوْ خَبَزْنَا بِعَجِينٍ حَقِيقِيٍّ».
رَدَّ الْوَلَدُ الْوَاقِفُ:
«أَنَا أُحْضِرُ الدَّقِيقَ».
وَرَدَّ الْوَلَدُ الْمُنْحَنِي:
«وَأَنَا أُحْضِرُ الْمَاءَ».







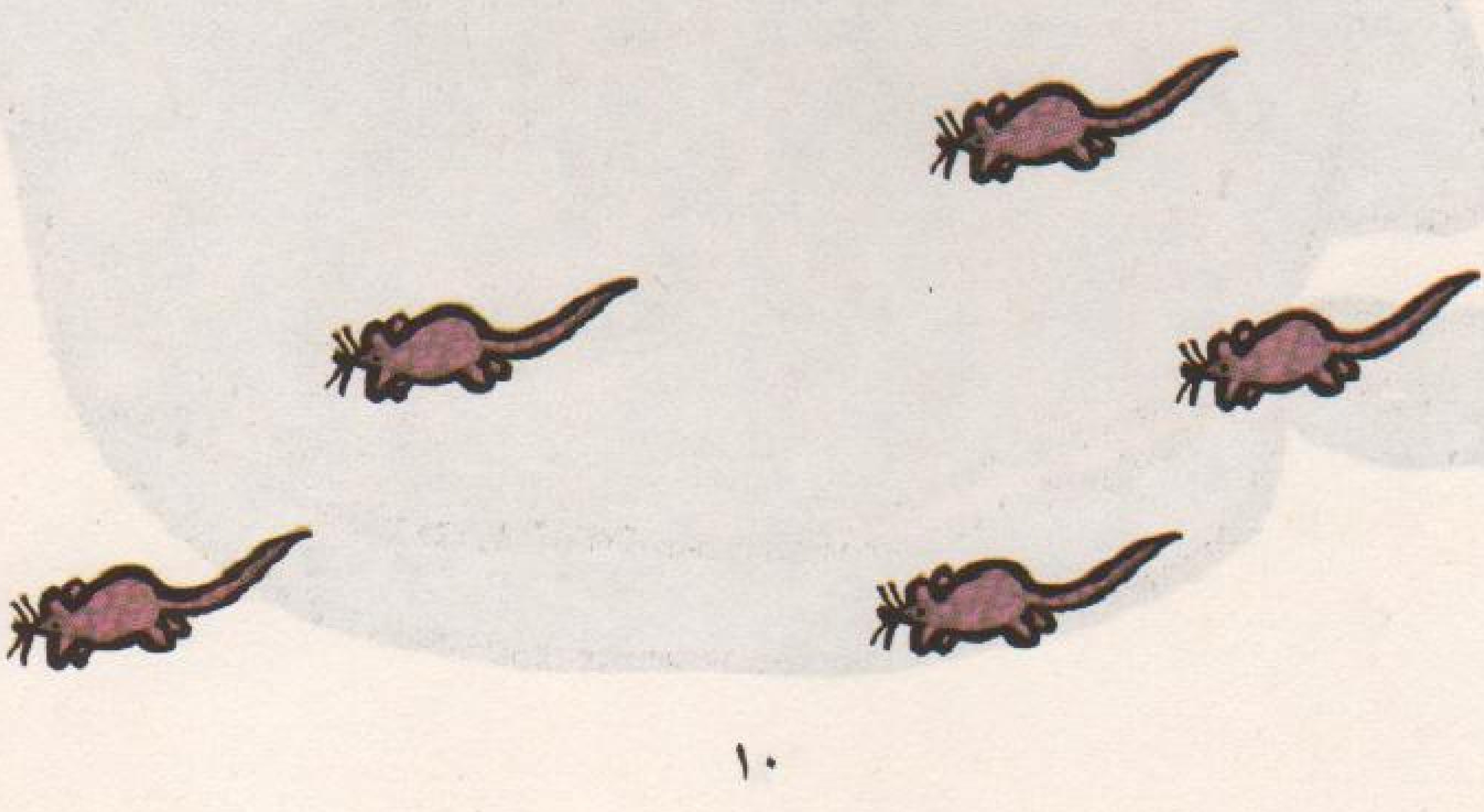
لَمَّـا دَخَلَ مِن الْبَـابِ الْمَفْتُوحِ عَـلَى الْحَـوْشِ؛ رَأَى أُمَّـهُ جَـالِسَـةً تُغَنِّي؛ وَظَهْـرُهَـا إِلَى الْبَـابِ، وَوَجْهُهَا إِلَى الْوَابُورِ تُنَظِّفُ ثِمَارَ الْكُوسَةِ.

غَافَلَهَا، وَفَتَـحَ بَابَ الْحُجْـرَةِ الْمُقَابِلَـةِ الْمُعْتِمَةِ: نَافِذَتُهَا مَسْدُولٌ عَلَيْهَا الْخَيْشُ، وَبُقْعَةُ نُورٍ ضَئِيلَةٌ تَسْقُطُ مِنْ مَنْوَرِ السَّطْحِ عَلَى كِيسِ الذُّرَةِ، وَقُفَّـةُ الدَّقِيقِ كَانَتْ فِي الرُّكْنِ عَلَيْهَا جِلْبَابُ أَبِيهِ الْقَدِيمُ. رَفَعَـهُ بِحَذَرٍ، وَمَـدَّ قَبْضَتَهُ يَمْـلَأُهَـا لِيُفْـرِغَهَـا فِي حِجْرِهِ.





حِينَ مَرَقَ مِنْ بَيْنِ ضَلْفَتَي الْبَاب؛
وَاجَهَتْهُ أُمُّهُ عِنْدَ الزِّيرِ تَمْلأُ الْكُوزَ؛
سَأَلَتْهُ عَمَّا كَانَ يَفْعَلُ بِالْحُجْرَةِ.
قَالَ:
«كُنْتُ أُرِيدُ لُقْمَةً مِنْ سَلَّةِ الْخُبْزِ.







وَأَسْـرَعَ إِلَى الْحَوْشِ حَيْثُ وَجَـدَهُمْ يُقِيمُـونَ الْفُرْنَ بِأَحْجَارٍ صَغِيرَةٍ، يَلْصِقُونَهَا بِطِينٍ قُطِعَ مِنْ حَوْلِ عُنُقِ الطُّلُمْبَةِ.

وَالْبِنْتُ كَانَتْ تَجْمَعُ أَعْوَادَ الْحَطَبِ وَالْقَشَّ مِنْ حَظِيـرَةِ الدَّجَـاجِ ، تَصُفُّـهُ بِجَـانِبِ الْجِـدَارِ، ثُمَّ جَلَسَتْ تَخْلِطُ الـدَّقِيقَ بِالْمَـاءِ فِي صَفِيحَةٍ قَـدِيمَةٍ، تَضْرِبُهُ بِكَفِّهَا الصَّغِيرَةِ؛ حَتَّى صَارَتْ لَهُ فَقَـاقِيعُ تُبَقْبِقُ طَـارِدَةً الْهَوَاءَ الْمُحْتَشِـدَ. كَـانَتْ تَـوَدُّ لَـوْ تَسْمَعُ لَهُ ضَرَبَاتٍ تَهُزُّ أَرْكَانَ الدَّارِ؛ كَعَجِينِ أُمِّهَـا الَّـذِي تَنْكَفِىءُ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْـلِ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ، وَقَالَتِ الْبِنْتُ لِنَفْسِهَا: «الْعَجِينُ لَنْ يَخْمُرَ، وَلَنْ يَنْتَفِـخَ حَتَّى يَنْدَفِقَ عَـلَى جَوَانِبِ الصَّفِيحَـةِ؛ لأَنِّي لَمْ أُسَمِّ عَلَيْهِ».

حَرَّكَتْ شَفَتَيْهَا بِـاسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الـرَّحِيمِ، ثُمَّ قَرَأَتْ الْفَاتِحَةَ الَّتِي حَفِظَتْهَا عَنْ أَبِيهَا.



صَنَعَ الأَوْلَادُ لِلْفُرْنِ فُتْحَةً كَبيرَةً يُدْخِلُونَ مِنْهَا النَّارَ، وَفُتَحَاتٍ صَغِيرَةً ضَيِّقَةً يَخْرُجُ مِنْهَا الدُّخَانُ. فِي النِّهَايَةِ مَدَّدُوا الصَّفِيحَةَ الصَّدِئَةَ عَلَى سَطْحِ الْبِنَاءِ، ودَعَّمُوا مَنَافِذَهَا بِالطِّينِ وَالْحَصَى.

وَفَكَّرُوا: «فِي رَمَضَانَ سَنَأْتِي بِالْكُوزِ الْمَثْقُوبِ مِنْ أَسْفَلِهِ؛ لِنَرُشَّ عَلَيْهِ الْعَجِينَةَ خُيُوطاً رَفِيعَةً لِتَكُونَ الْكُنَافَةَ، أَوْ نُوَزِّعَ الْعَجِينَةَ قِطَعاً صَغِيرَةً لِتَكُونَ الْقَطَايِفَ.